الرحلة : المفهوم .الدوافع ودواعي التدوين.

1 – مفهوم الرحلة:

أ– لغة:

لقد حظيت مادة " رحل " بشرح واف في المعاجم العربية .فقد جاء في لسان العرب: الرحلة والرحلة اسم للترحال للمسير الترحيل والرحال بمعنى الأشخاص يقال : رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورجل رحول وقوم رحل : أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحال : عالم بذلك مجيد له.

والرحلة بالضم « ومن معاني الرحلة التي وردت كذلك في لسان العرب، الوجهة أو المقصد أو الوجه الذي تأخذ فيه وتريده كما تعني السفرة الواحدة

وكلها بمعنى السير والمسافرة والخروج من أرض إلى أخرى والانتقال والوجهة أو المقصد فقد جاءت بمعنى المكان الذي يراد السفر إليه، وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه، أو اقتراب وقت الرحيل، كما في قول الشاعر:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذلك خبرنا الغراب الأسود

فمشتقات مادة " رحل " كثيرة ومتعددة، وتدل كلها على الحركة، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي حركة وانتقال« تبعث في الإنسان الحيوية والنشاط، وتعود عليه بمنافع عدة في مختلف مجالات حياته، على عكس السكون الذي يبعث في صاحبه الجمود والخمول .ولعل هذا ما دفع ياقوت الحموي إلى القول أن الحركة من دلائل الحياة والسكون من دلائل الموت.

الرحلة في القرآن الكريم

ورد لفظ رحلة في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة قريش في قوله عز جل: لإيلاف في قريش إلا فيهم رحلة الشتاء والصيف" قريش: 2 وهي رحلة يقوم بها أهل مكة صيفا إلى اليمن وشتاء إلى الشام لغرض التجارة.

كما ورد لفظ " رحل " في الكتاب المنزه، ولكن بمعنى ما يحمل أثناء الرحلة في قوله عز وجل: فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه يوسف: ٧٠

ب –/اصطلاحا

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، إلا أنها تصب كلها في قالب واحد:

فقد عرفها الإمام الغزالي بأنها نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة.

أما بطرس البستاني فيعرفها بأنها انتقال واحد – أو جماعة – من مكان إلى مكان آخر لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة، لأن الرحلة لا تكون من دون غرض معين. وإنما يكون لها دائما دافعا، سواء كان ذلك الدافع ذاتيا يرتبط بالرحالة فقط .أو يكون دافعا عاما متعلقا بشؤون عامة أو خاصة الأمة.

في حين يعرفها صلاح الدين الشامي بقوله : إن الرحلة تظل إنجازا أو فعلا أو مباشرة لما يعنيه، أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه.

من خلال هذا تحديد لمفهوم الرحلة في اللغة وفي الاصطلاح تبين أن المفهومين لا يبتعدان كثيرا، فهما يشتركان في معنى واحد وهو الحركة، وهذه الحركة يحقق منها الإنسان فوائد عدة. فالشخص الذي يقوم بالرحلات ليس هو نفسه الشخص الذي يبقى في مكانه ولا يتحرك، ولقد أشار إلى :«ذلك المسعودي بقوله ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإنارة كل نفيس من مكمنه.

دوافع الرحلة:

الرحلة طبيعة بشرية وسلوك إنساني عرفه منذ أن دأب على الأرض متحديا كل الصعوبات، ومتجاوزا كل الوقائع، وهناك نماذج عدة شاهدة على ذلك.

ودوافع الرحلة عديدة ومتنوعة؛ فلكل رحلة دافعها وأسبابها التي تدعو للقيام بها، وهذا ما يجعلها تختلف من رحالةل آخر، ويمكن تحديها في النقاط التالية:

أ- **الضرورة** : تعد الضرورة واحدة من الدوافع الحتمية التي تدفع الرحالة إلى القيام بهذا النشاط. خاصة إذا تعرض لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادر، بحثا عن الكلأ والماء، وهربا من مصيبة كظلم حاكم أو أمير،أو يأسا من المجتمع، وما قد حل به من حروب ونزعات محلية، وظروف اجتماعية قاسية، وويلات ونكبات فكانت الرحلة إحدى السبل الضرورية التي يسلكها الإنسان إنقاذا لنفسه ونجاة من المكائد.

ومن الرحالين الذين دفعتهم الضرورة إلى الارتحال" ابن عربي ." هذا الرحالة الذي عرف برحلته الضائعة " ترتيب الرحلة .

ب- الدافع الديني:

ويعد من العوامل الأساسية والقوية التي تدفع بالرحالة إلى شد رحاله نحو المشرق الإسلام لأداء مناسك الحج زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء، في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها.

وهذا العامل من أقوى البواعث على الرحلة فهو مبعث الحنين ولأن الحج فريضة على كل مسلم قادر ماليا وبدنيا، وهو أمنية كل مسلم، كان واحد من أهم الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب، وسائر الشعوب وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية،على الرغم من المسافات الشاسعة التي لم تستطع أن تكون حائلا بين الرحالة وهذا المكان المقدس.

ج – الدافع العلمي : كانت الرحلة إحدى السبل التي لجأ إليها الرحالة بغية طلب العلم وملاقاة العلماء والفقهاء ومحاورتهم والاستفادة منهم .بل إن هناك من العلوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطا عضويا لا انفصام له، مثل الجغرافيا ولذلك نجد الجغرافيين المسلمين من الرحالة هذا راجع إلى إدراكهم دور العلم في التقدم والتحرر من عبودية الجهل، بل لأن في قلبه أيضا أمل في نيل الأجر والثواب الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

د– الرحلة الإدارية:

وتسمى كذلك رحلة السفارة، وهي رحلة رسمية يقوم بها الرحالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة قد تتعلق بشأن البلاد، كما قد تخص الحاكم نفسه .بل إن هذا النوع من الرحلات قد يكون بهدف التجسس والاستطلاع كرحلة سلام الترجمان عام227 م 841م والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله، قصد معرفة حقيقة سد الصين الكبير الذي يقال إن الاسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج.

فالرحلة الإدارية فرضتها ظروف البلاد إذ اقتضت ضرورة الحكم والإدارة، وتقدير الثروات وحجم الضرائب أن يكلف الحكام بعض الأشخاص بالقيام برحلات تفقدية لجمع

البيانات والحقائق، وتقديم التقارير، وسواء أطلق على النشاط صفة (الجغرافية الإدارية)، أو كتابة تواريخ الأقاليم فقد لعبت الرحلات دورا هاما في أدائه.

هـ– الدافع الاقتصادي:

عرف الإنسان الرحلة قديما، وكان من بين أهدافها التجارة سعيا لطلب الرزق فالتجارة كانت

من أهم الدوافع التي دفعت الرحالة إلى تدوين رحلته حتى يعين القارئ على"معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك، لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى، أو الترحال لطلب الماء والعشب.

و/ الدافع الترفيهي السياحي:

وإلى جانب هذه الدوافع الرئيسية هناك دوافع أخرى تجعل الرحالة يغادر ينتقل إلى بلد آخر قصد الاطلاع على المجهول من جهة، وتحقيق المتعة والترفيه عن نفسه من جهة أخرى.

وتعدد أغراض الرحلة والارتحال، كان من أثرها إفراز فن نثري عرف بأدب الرحلة وتعدد الأغرض والدوافع وبالتالي تعدد الرحلات، مما جعل الدارسين يختلفون في تصنيفها؛ فصلاح الدين الشامي يحصرها في ستة أنواع وهي : رحلة تجارة، رحلة الحرب، رحلة السفارة، وهذه الرحلات الثلاث ظهرت قبل الإسلام، وهناك رحلات أخرى ظهرت بمجيء الإسلام وأضيفت إلى قائمة الرحلات وهي :رحلة الحج، رحلة طلب العلم ورحلة التجوال والطواف.

دواعي تدوين الرحلة:

إذا كان الرحالة يزور بلدانا وأمما، فيتعرف من خلال رحلته هذه على مختلف مظاهر البلاد التي زارها (الدينية والاجتماعية والثقافية) فما أهمية تدوينه لهذه الرحلة؟ وما الذي يدفع الرحالة إلى سرد أحداث رحلته ونقلها إلى القارئ ؟

1- تلبية رغبة الآخرين من حكام، وأصدقاء أو أقرباء، بتدوين الرحلة، وإمتاعهم بالإطلاع على ما أثار إعجاب الرحالة ودهشته، فرحه وحزنه، وحياته ومعاملات الآخر له.

2- تقديم معلومات عن المعارف والعلوم، والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتهم.

3- التعريف بالبلدان والممالك التي زارها، وتحديد الطرق والمسالك، وتبيين مواقع الخطر والمشقة .حتى يستفيد الآخرون منها.

4- سرد أخبار الأمم والأقوام – ماضيها وحاضرها – من عادات وتقاليد وطقوس.. سواء كانت واقعية أو متخيلة.

5- التأريخ للأحداث المتنوعة، وتقديم معلومات سياسية واقتصادية ....عن البلدان المقصودة في الزيارة.

6- الدعوة إلى السياحة والتفاعل مع الآخر والانفتاح عليه.